مبدعات في مهب الغربة

حين انتهى الكاتب والصحافي صلاح عيسى- رئيس تحرير "القاهرة" الجريدة الصادرة عن وزارة الثقافة المصرية- من قراءة الاوراق الموضوعة امامه، نظر الي بابتسامته العريضة معلقا (هل هذه قصة حياة ناظم الغزالي ام مقالة غزل و حنين الى العراق!!؟).. تكررت الملاحظة كلما كتبت كلمة عن العراق.. يتدفق ذلك السائل الغريب العجيب من عرقي- عن قصد او بدون قصد- ليختلط برائحة الورق والحبر، فتصبح عملية الفصل بين الخاص والعام مستحيلة حتى بعد الف.. الف عام من الغربة.

هكذا الحال حينما التقينا -كل في مجالها- الشاعرة، الفنانة التشكيلية، الاديبة.. نتجاوز المرارة التي نتقاسمها بالحديث والضحك و الغناء.. دون ان نتجاوز حدود الخارطة التي نعلقها في اعناقنا.. وكأننا بحاجة الى من يذكرنا بالعراق!

(غربة هنا..غربة هناك) هكذا اختارت صديقتي الشاعرة ريم قيس كبة عنوانا لرحلتها مع الغربة:-

لن ازايد على من هم في الداخل بالغربة.. كان اهم ما وصلني منذ شهرين رسالة قصيرة على الموبايل من احد اصدقائنا الذين لم يتركوا العراق و لو يوم او بعض يوم منذ 25 عاما.. كان "المسج" في غاية الاختصار والبلاغة والالم.."المسج" يقول:"كم اشتاق لبغداد !.."

و قبل ايام كنت بالهاتف اسأل عن صديقتي التي ما زالت في بغداد، قلت لها "انا في غربتي مسكونة بالوطن!!"

فضحكت صديقتي و قالت بسخرية :"لكنني في وطني والغربة تسكنني".

هي مثل كثير سواها، تنتظر التأشيرة للهروب من غربتها في وطنها.. بحثا عن وطن جديد في الغربة، فمنذ سنين والغربة تسكننا ونحن في العراق.. رحل الاحبة والاقارب والاصدقاء.. بحثوا عن امان و حياة حرة كريمة لم تعد حتى في متناول الحلم !.. وما ان حالف الحظ احدهم وحط رحاله في بر أمن حتى طاردته جنيات الخوف من جديد.

صحيح اطمأنيت على حياة اطفالي من الخطف والقصف والمفخخات وغياب الوقود والماء و الكهرباء.. لكنني لم اعد انام امنة مطمئنة.. لقد بات المستقبل يخيفني.. ووحش التشرد يقف عند بابي.. واهلي تقاسموا البلاد مثلي.. بحثا عن وطن!..

انعدم امان الاحساس بالآخر.. سرقوا وطني ولغتي وحبي، سرقوا اهلي وبيتي وشجيرة الشبوي الليلي الذي كان يعطر اوتار عودي في ليل بغداد الآمن الطويل. لقد غادرت بيتي منذ عامين.. وكنت حتى وانا هناك ابكي بغداد اذ اسمع حسين نعمة.

يقول كفافي :"ما دمت قد خربت نفسك في هذا الركن الصغير من العالم .. فأنت خراب أينما حللت".

ربما كتب علينا ان نبقى في غربتنا خارج الوطن وداخله حتى يأذن الله لعباده العراقيين ان يسلموا لوطنهم.. وان يسلم لهم الوطن.

بكيت بغداد وانا في حضنها.. فكيف بي وانا نخلة لا يشرب جسدها الماء الا على شاطئ دجلة.. ولا تأنس الا لشعر ابي نواس.. وفلسفة الحلاج.. وعود زرياب.. او اي حفيد مبدع من نسلهم.. يمد جذوره في تربة العراق.. وتشرب عيونه العشق على ضفاف رافديه؟

الفنانة التشكيلية رؤيا رؤوف.. بابتسامتها الطفولية المحببة –تؤمن بقدرة الابداع على التواجد في كل الاماكن كما يحدث لها:-

المبدع الحقيقي يكون خياله خصباً جدا في تكوينات موضوعية تتناغم مع خزينه الثقافي وما يبصره، والفنان يبحث باستمرار عن الافضل ويسعى لتطوير نفسه دائما، فالمعاناة تخلق ابداعا متوازنا مع ادراك الفنان ووعيه.. في الوطن كنت مستمرة في البحث بدون توقف، مستلهمة ثراء حضاراتنا واساطيرنا الثرية، بالاضافة الى الخزين الثقافي مما حصدته من قراءاتي للاشعار والكتب الفلسفية والتاريخية في صور الاساطير القديمة منذ بدأ الانسان.. اينما اكون أسعى الى تطوير نفسي نحو الافضل والبحث عن الجديد. قد تتغير الرقعة الجغرافية والمشاهد واشكال الحضارات، لكن يبقى المضمون الاساسي للمبدع واسلوبه والثراء الروحي والادراك الفلسفي الأساس للانتاج الابداعي. الفنان العراقي بمعاناته المستمرة يحمل معه امكانياته الابداعية اينما يكون، فلا يغيب عن ذاكرته وادراكه الحسي ما يحدث لوطنه من مآسي.. ويضيف قلق الغربة والخوف من الاتي. قد تحدث تأثرات موضوعية في صيغ متنوعة للعمل الفني.. لكن يبقى الجوهر الحقيقي قابلا للتطور من خلال خزين المثقف وهمومه التي تنصهر في روحه ومشاعره واحاسيسه اينما يتنقل واينما يوجد.. لا تغادره صورة الوطن ولا حماسته لانتمائه اليه..

انا ارسم في العراق وفي مصر وفي كل الدنيا وحتى لو كنت في صحراء نائية، ارسم على الرمال وارسم على الهواء وعلى الغيوم.. تأثيراتي استمدها من بحثي المتواصل في القراءة والاطلاع على ثقافات الآخرين وحضاراتهم، بالاضافة الى خزين واسع من الخيال الملئ بالصور الحالمة والمتناغمة مع الواقع..

(المنافي والشتات وحلم البلد البعيد) هي الفكرة التي تلح على الاديبة والاعلامية عالية طالب التي عاشت معاني مختلفة للغربة، تصفها لنا قائلة:

كنت اعرف انني قد شبعت اغترابا اختياريا من اول سنوات عمري بسبب الدراسة وعمل زوجي التي اجبرتنا على ترحال متعدد بين بيروت وعمان وتركيا، وفي كل رحيل اشعر بأنني اساهم في اقتطاع جزء مهم من كياني دون ان ادري كيف اعالج صدع ألمي الحارق وانا اغادره بعيون دامعة. كان الاشتياق الحارق يطاردني. طوال سنوات غربتي المتواصلة والمتقطعة كنت اعرف انني ساعود يوما ليحضنني العراق كما احتضنه في قلبي، وهذا عكس واقعي اليوم، حيث المنفى والغربة ليست باختياري وانما الظروف القاسية اجبرتني على وداع متعجل.

تركت كل شي ورائي واخترت المجهول، ولم اقدر حجم الضرر النفسي الذي سببته لنفسي ولعائلتي وهي تصبح وتمسي بانتظار اخبار تصلها من العراق تطمئن النفوس وتبشر بالعودة، ولكن شيئا من هذا لم يحصل والاشهر تتوالى دون رحمة.

اعيد انشاء مستقبل جديد لم اكن ادري انه سيتوقف. يوم مغادرتي للعراق، تركت مهمتي كمدير تحرير لجريدة مستقلة ببغداد وتركت منظمتي الاعلامية التي كانت معنية بمراقبة البث العام وتحليل مدى حيادية هذه المنافذ التي تواترت محليا بما يؤشر اعلاما حرا يغرف من الاحداث المتسارعة ما يشاء. اغلقت امالي يوم اغلقت مكتبي الذي صار الوصول اليه يستغرق بين ساعتين وثلاثة ساعات بسبب الانفجارات والطرق المقطوعة والحواجز الكونكريتية، ورغم ذلك لم اكن اضجر، كان مجرد العمل والعطاء والتواصل والشعور بانني اقدم شيئاً مهماً لبلدي، يخفف وطأة الظرف الصعب. كنت انسج في رأسي خطوط رواية جديدة اضيفها لأصداراتي السابقة، الا انني كلما فكرت بالبدء ارجأت الامر بسبب التغيير المتسارع الذي يلاحق احداثنا.

حملت يوماً كل أوجاعي وغادرت العراق الى مصر، وحين اقمت فيها شعرت بانني اوقفت قابل الايام، ليس لي وحدي بل لاولادي ايضا الذين تخرج اثنان من دراستهم الجامعية دون ان يكون الباب مفتوحا امامهم، ركنت شهاداتهم جانبا وبدأ الضياع يقود الخطوات الى ايهام غير مفهوم، ماذا يعني ان توقف الزمن غير ان توقف حياتك ايضا.

مصر العزيزة لم تبخل علي بالرعاية الثقافية والاعلامية، اصبحت منتدياتها الادبية تمثل تواصلا الجأ اليه لأشعر انني موجودة على خارطة العطاء، وبدأت اكتب روايتي التي توثق احداث العراق وما جرى لنا طوال السنوات الثلاث التي عشتها بعد سقوط النظام الى حين مغادرتي قبل اكثر من عام.

لا زلت اكتب مقالاتي وافكاري في صحف ومواقع عراقية واتابع تفاصيل كل ما يجري لبلدي وكأنني في العراق و لم يغادره الا جسدي المنهك.

سنعود، اعرف هذا، واعرف ايضا ان حجم الاغتراب الذي يطوقنا لا يمكن ان يمحى من ذاكرتنا بسهولة كل ما تركه من بصمات مؤلمة وانين.

صديقتي الرقيقة الشاعرة رنا جعفر ياسين اختارت الشعر بداية لرحلتها مع الغربة:-

(يا أيها الأحياءُ والأمواتُ

يا من تسكنونَ الحربَ بيتاً

الشِعرُ يحملنا إليكم

و نحلمُ -ذاتَ فاجعةٍ- بأنـّا قد نعودُ)

غالبا ما ترتبط الطقوس الإنسانية بمفردات يومية وموجودات تجعل الإنسان متعلقا ببيئته، آخذاً منها، ومعطياً لها.. في حالة من التفاعل المتجددة بينه وبين محيطه العام/ الخارج.. ويتفاقم التفاعل لدى الكاتب أو الفنان في حوار بين داخله وخارجه هو المولد والمحفز للعمل الإبداعي.. المبدع ابن بيئته، يحبها ويكرهها.. يتقبلها ويرفضها.. يتوافق معها ويثور عليها.. وهكذا، وعندما يشعر بأنه انسلخ (قسرياً) عن محيطه المتمثل بالوطن ترتبك المرجعيات الإنسانية في داخله وتفقد مركزيتها وتتمحور حول التلاشي والشعور بالخيبة واللاجدوى، وتبدأ محاولة استحضار المحفزات المخبوءة في الذاكرة لشحذ المخيلة وارتكاب الكتابة.. وكما يعبر الإنسان الطبيعي بالبكاء عندما تستحوذ عليه الذكريات والحنين، يفترس المبدع القلم ويخوض في نزيف الكتابة التي غالبا ما تغوص في أعماق رغباته بالعودة والتلاقي مع خسائر الرحيل، وعلى وجه الخصوص فأن ما يعانيه العراق من ويلات الدمار وسوريالية الموت والترحيل ترك بصمة على النتاج الإبداعي.. وعكسَ حقيقة الصراع المتصاعد في داخل الإنسان بين الذات والبحث عن ما تشظى منها في وطن صار حلما نحاول امساكه ولكننا نصحو على فقاعة بلون الاغتراب المر.

<u>لينامظلوم</u>

<u>كاتبة و صحافية عراقية</u>

المعرض الشخصي الخامس للفنانة نضال الاغا

اقامت الفنانة التشكيلية العراقية نضال الاغا في 22-10-2007 معرضها الشخصي الخامس تحت عنوان (تاملات اللون) على احدى قاعات ميديا للعروض التشكيلية في كردستان العراق-اربيل.